المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الخامس والستين

١ اغسطس (آب) سنة ١٩٢٤ — الموافق ٣٠ ذي الحجة سنة ١٣٤٢

تدمر

اتتنا الاخبار من سورية ان الدولة المنتدبة اهتمت بحفر آثار تدمر ودرسها وانها كشفت حتى الآن شيئاً كثيراً منها فرأينا ان نذكر هنا خلاصة ما كان يعرف عن هذه المدينة السورية التي كانت في وقت من الاوقات عاصمة لمملكة عربية عزيزة الجانب

نشأتها ومقامها التجاري

تَدْمُر وباليونانية پالميرا مدينة على ١٥٠ ميلاً الى الشمال الشرقي من دمشق في واحة بصحراء سورية تعلو ١٣٠٠ قدم عن سطح البحر . وكانت في ايام مجدها ملتقى طرق القوافل الذاهبة من فينيقية الى خليج فارس والآتية من بلاد العرب والبتراء الى فلسطين وفينيقية

قيل ان سليمان الحكيم بناها على ما جاء في اخبار الايام الثاني او رعمها على ما رواهُ يوسيفوس . لكن سفر الملوك الاول الذي اعتمد عليهِ كاتب سفر الاخبار يذكر « تامار » في المتن العبراني وتدمر في الحاشية والظاهر ان الباحثين يرون ان تامار هو الاسم المقصود وهي بلدة في يهوذا كما جاء في سفر حزقيال . انما ذكر كاتب سفر الاخبار تدمر لانها كانت علماً مشهوراً في ايامهِ اشهر من تامار فتبادر اليها ذهنهُ او لانهُ اراد ان يزيد ملك سليمان سمةً وعظمة

كتب كاتب سفر الاخبار ما تقدم نحو سنة ٣٠٠ ق . م ولذلك يصح القول ان تدمر نشأت وزهت قبل ذلك بزمن غير قصير . وهناك ادلة على ان القوافل كانت تصل الى دمشق في القرن السادس ق . م من غير ان تمرَّ بتدمر . لذلك نستطيع ان نعلق نشأة هذه المدينة بنزوح القبائل العربية غرباً بعد ذروة جيوش بابل ممالك

سورية في القرن السادس. فامتلكت القبائل العربية الاراضي الزراعية في بلاد كنعان ثم قبضت على اعنة التجارة الشرقية واخذت تتحضّر وتتعلم اللغة الارامية قراءة وكتابة. وكانت الارامية اكثر اللغات انتشاراً غربي الفرات في زمن الامبراطورية الفارسية من القرن السادس الى القرن الرابع ق . م

واول من ذكر تدمر من مؤرخي الرومانيين بلينيوس في اواسط القرن الاول المسيحي فقال انها مدينة حصينة مستقلة بين المملكة الرومانيه والمملكة الفارسية مطمعاً لكلتيهما . ثم ذكرها المؤرخ ابيانوس فقال انها كانت قد بلغت من الغنى درجة بعيدة هاجت مطامع مرقص انطونيوس سنة (٤٢ — ٤١) ق

فباح لفرسانه نهبها ففرّ سكانها والتجأ الى حصن على الفرات

وقد وجد في تدمر كثير من الالوا الحجرية نقشت عليها كتابات با الارامية اقدمها من سنة ٣٠٤ من الد السلوقية وهي توافق سنة ٩ ميلادية ويظهر من هذه الالواح ان تدمر كا قد اصبحت مركزاً تجاريًّا كبيراً بين دولتي الرومان والپارثيين[1] اما حضار فكانت مزيجاً من عناصر مختلفة ا العنصر العربي والارامي واليوناني والروماني وكان اكثر سكانها من العرب يتكلمون الارامية ويكتبونها ولكنهم لم ينسوا العربية ويستنتج ذلك من ان اسماء الاعلام والآلهة كان بعضها عربيًّا والبعض الآخر آراميًّا

ومن ثم انتقلت من مستعمرة عربية صغيرة الى مدينة تجارية كبيرة تحطُّ فيها القوافل الذاهبة الى الجزيرة وخليج فارس والهند والآتية منها . وبطبيعة الحال كان سكانها من شيوخ القبائل الذين يستطيعون ان يعنوا باعداد القوافل وامور

(١) بلاد البارثيين الى الجنوب الشرقي من بحر قزوين كانت تشتمل ما يعرف اليوم بخراسان وسكانها كانوا شعباً ايرانياً نشيطاً واشتهر من ملوكهم مثراداتس الاول ، وهو امبراطورية بارثيا

التجارة وتنظيمها . وكذلك اصبحت تدمر مركزاً دينيًّا سمت فيها عبادة الشمس على كل العبادات الاخرى

وزادت ثروتها بما مرّ فيها من نفائس البضائع كاللآلىء والجلي والحرائر والعطور التي كانت تجيء بها القوافل من بلدان الشرق المختلفة . وقد ظن بلينيوس أن مقدار ماكان يرد من هذه النفائس على رومية سنويًّا يساوي ثلاثة ارباع المليون من الجنيهات يسير اليها في طريقين الاول من البحر الاحمر فمصر فالاسكندرية والثاني من خليج فارس فصحراء بلاد العرب وسورية . ولما دالت دولة الانباط في البتراء استولى التجار التدمريون على الخط التجاري الثاني فصارت قوافلهم تقطع الصحراء الى الفرات . وكانت هذه التجارة تدرُّ الارباح الطائلة على التجار وعلى حكومة تدمر ايضاً لانها كانت تفرض الضرائب الكبيرة على كل ما يرد اليها ويصدر منها

شكل (٢)

ولم تبلغ الصناعة الوطنية شأواً بعيداً في تدمر وكان استخراج الملح من رواسب الصحراء اهمها تتلوهُ الدباغة وما يصنع من الجلود . ويظهر من الكتابات المنقوشة على الالواح المذكورة آنفاً ان فئة من العمال كانت تعمل في الذهب والفضة . ولكن مما لا ريب فيه ان تدمر لم تكن بلداً صناعيًّا بل كان اكثر سكانها يتصرفون الى التجارة ونقل البضائع بالقوافل

تاريخها السياسي

لم تنل تدمر مقاماً سياسياً رفيعاً الاّ بعد ما حلّ الرومان في شواطىء فينيقية والظاهر انها اعترفت بسيادة رومية من عهد الامبراطورية الاولى بدليل ما اصدرهُ كل من الامبراطور جرمانيكوس (١٧ — ١٩ ق . م) والامبراطور دوميتيوس كوربولوس (٥٧ — ٦٦) ق . م من الاوامر القاضية باحترام ما تفرضهُ حكومة

تدمر من المكوس على الواردات اليها . لكن ذلك لم يفقد تدمر استقلالها في ايام أسبسيانوس (٦٩ — ٧٩) ب. م أُعترف لها بمركزها الممتاز كصلة بين الامبراطورية الرومانية ومملكة البارثيين . وكانت البتراء ندّة تدمر في المجد والقوة فلما سقطت سنة ١٠٥ استقلت تدمر بالعزّ والعظمة فكان عصرها الذهبي من سنة ١٣٠ الى ٢٧٠ ب . م واليه يرجع معظم الآثار الفخمة الباقية من انقاضها الآن

وعني بها الامبراطور ادريانوس عناية خاصة وزارها سنة ١٣٠ ومنحها اسماً جديداً وهو ادريانا پالميرا نسبة اليه . واصلح فيها اصلاحات مالية كثيرة فازال ماجرت عليه التقاليد من « فرض الضرائب حسبما جرت العادة » وكانت حكومتها حينئذٍ في ايدي الشعب وفي مجلس اداري واصحاب المناصب الحكومية فيها كانوا يلقبون القاباً يونانية. وجُعلت تدمر من المستعمرات الرومانية في ايام الامبراطور سبتيموس سفروس او الامبراطور كاراكلاّ واصبح لاهلها حقوق الرومانيين

ثم جاءت الحروب البارثية في القرن الثالث فسطع نجم تدمر وعلا مقامها حتى لقبت باميرة الشرق الروماني وانفسح المجال امام الطامحين من ابنائها لبلوغ المقامات الرفيعة في الجيوش الرومانية التي كانت تحارب في الشرق . وكان بين اسرها اسرة طموحة الى العلى ما زالت تتقدم ويعلو شأنها حتى اصبحت في المقام الاول وكان مقدموها يلقبون بالالقاب الرومانية الشريفة لقاء تعضيدهم للجيوش الرومانية فنال اذينة احد زعمائها لقب سبتيموس اي السابع ورتبة سناتور روماني واعترف بابنه حيران رئيساً وسمي «رأس تدمر» فوق لقبه الروماني وهو سبتيموس. وكان لهذا ابن يدعى اذينة ايضاً وهو زوج زنوبيا المشهورة وقد حارب ملك الفرس الذي اسر الامبراطور فالاريانوس فقهره واستولى على بلاد الجزيرة فعظم شأنهُ في عين الدولة الرومانية فاعترفت به ملكاً على تدمر وجعلهُ الامبراطور غالينوس نائب الامبراطور في الشرق لقاء اخلاصه لهُ حينما انتفض عليه قواد الجيش هناك . لكن اذينة لم يتمتع بالملك طويلاً لانهُ اغتيل مع ابنه الاكبر في حمص وهو في ذروة عزه . فقبضت زوجتهُ زنوبيا على اعنة الملك بيدٍ من حديد وكانت تحكم باسم ابنها الصغير واسمهُ وَهَب اللات

كانت تدمر قد نشرت اعلامها فوق سورية كلها والجزيرة في ايام اذينة والراجح انها استولت على ارمينية وكيليكية (قاليقلا) وكبدوكية ايضاً. اما زنوبيا فسوّلت لها

نفسها ان تفتح مصر فسيّرت سبعين الفاً من جيوشها وغزتها ونصّبت ابنها وهب اللات ملكاً عليها ولقبت نفسها ملكة الشرق. فقصدها الامبراطور اوريليانوس بجيوشه فانتزع قائدهُ پروبس مصر من يديها سنة ٢٧٠ ب . م واعدّ الامبراطور عدتهُ لغزوة تدمر فقاومتهُ جيوشها قرب انطاكية ثم ارتدّت الى حمص حيث انتصر عليها الرومانيون وفتح الامبراطور تدمر عنوة سنة ٢٧٢ ق . م فعفا عن اهلها ما عدا رؤساءها. اما زنوبيا ففرت مع ابنها لاجئة الى ملك فارس لكن الامبراطور اقتفى اثرها وقبض عليها وعلى ابنها قرب الفرات واخذهما اسيرين الى رومية وابقى في تدمر فرقة من الجند لحراستها ففتن عليهم بعض الاهالي وقتلوهم . وبلغ أوريليانوس الخبر فسخط على المدينة وخربها سنة ٢٧٣ ق . م وقتل الثائرين من اهلها فاقل نجمها من ذلك الحين ولم ترجع الى سالف عزها

شكل (٣)

لغة اهلها وديانتهم

كانت اللغة الشائعة في تدمر لهجة من لهجات اللغة الارامية وحيث ان معظم السكان كانوا عرباً فلا غرابة في ان يكون معظم الاسماء عربيّاً وبعض من الكلمات المنقوشة على الالواح المذكورة اتفاً من اصل عربي . اما الاسماء الفنية لمناصب الحكومة ودوائرها فيونانية الاصل بلهجة تدمرية . وهناك بعض كلمات لاتينية ولكنها قليلة

اما الخطّ فارامي قديم وهو يمثل المرحلة الاخيرة التي مرّت فيها الحروف الفنيقية قبل ان صارت تكتب بشكلها العبراني المربّع

ولم تختلف ديانة التدمريين عن الديانة التي كانت شائعة في شمالي سورية وبين القبائل العربية في الصحراء الشرقية حينئذٍ . كان رأس آلهتهم اللهُ الشمس وهو

من اصل بابلي . ويقترن معهُ الهُ القمر الذي كان يُمثَّل كجندي روماني شاب وعلى كتفيهِ هلال كبير. وكانت الالاهة « اثار اته » الاهة الاراميين واللات الاهة العرب الاقدمين تعبدان في تدمر

ومن الآلهة التي يرد ذكرها الآله بعل شمين ويسمّى احياناً اله الابدية لكنهُ لم يحسب بين آلهة تدمر الوطنية . وقد كشف حديثاً اسم آلهٍ آخر عربي الاصل هو الاله شيلكوم ويلقب « بالخيّر الكريم الذي لا يشرب خمراً » ومعنى اسمهِ حارس الناس او حارس القوافل

والظاهر ان الديانة المسيحية دخلت تدمر بعد ان خرّبها اورليانوس واعاد بناءها ثانية ديوقلتيانوس في اواخر القرن الثالث بدليل ان مجمع نيقية الذي التأم سنة ٣٢٥ ب. م كان فيهِ اسقف اسمهُ مارينوس اسقف تدمر

شكل (٤)

وسلمت تدمر لخالد ابن الوليد صلحاً في اوائل الفتح الاسلامي على ما جاء في البلاذري وياقوت الحموي

آثارها وخرائبها نقلاً عن وصف القس بورتر

اشهر خرائب تدمر وآثارها هيكل الشمس والشارع ذو العمد والمدافن

اما هيكل الشمس فمن اخر مباني الدنيا واشهرها ولا يفوقهُ اتقاناً الاّ هيكل الشمس في بعلبك وهيكل زفس في اثينا . لهُ عرصة طولها ٧٣٠ قدماً وعرضها ٧١٥ قدماً وكان يحيط بهِ جدار علوهُ سبعون قدماً في ظاهرهِ عمد بارزة منهُ واطناف وغضون تزيدهُ بهجةً ومهابة ولمدخلهِ رواق على عشرة اعمدة وفي العرصة على دائرها صفان من العمد الكورنثية المضلّعة لها تيجان من نحاس فوقها اكليل ممتد عليها كلها مزخرف باطر النقوش بالازهار والاثمار والاوراق وبطاقات منظومة كالقلائد تمسكها اشخاص مجنحة ولم يزل بعض حائط العرصة ونحو مائة من عمدها قائماً . والهيكل قائمٌ كلهُ ولكنهُ مملوء باكواخ السكان الحاليين

اما الشارع ذو العمد فيبتدئ من الشرق بقنطرة عظيمة ويجوز في قلب المدينة وطوله نحو ميل وكان فيه اكثر من الف وخمس مائة عمود مصطفة في اربعة صفوف متوازية يتألف منها طريق متوسط وطريقان جانبيان . ولم يزل مائة وخمسون من عمده قائماً وعلى صدر كلٍّ منها رف صغير كما ترى في الشكل (٥) وكان على كل رفٍّ منها تمثال يمثل الهاً او رجلاً عظيماً . ويقول السياح ان هذا الشارع من اثمر مباني الدنيا وان كل مدينة قديمة من مباني سورية كان فيها شارع يماثله ولم تزل آثار هذه الشوارع في جرش والسامرة وبصرى وافامية ودمشق

اما المدافن فابراج عظيمة منتشرة في المدينة وحواليها فالتي في المدينة عظيمة كلها كل لكنها متهدمة والتي حواليها ابراج مربعة طول كل جانب من جوانبها من عشرين الى ثلاثين قدماً وفيها غالباً اربع طبقات كل طبقة غرفة واحدة على دارٍّ حجرات ممتدة من ارضها الى سقفها ويفصلها بعضها عن بعض عمد دقيقة من الرخام الابيض . وكان قدماء التدمريين يحنطون موتاهم ويضعونهم في هذه الحجر ويسدونها عليهم سداً محكماً ثم ينقشون اسماءهم ورسومهم على ابوابها وعلى السقف مقابلها . ولم تزل هذه الكتابات باقية الى الآن واكثرها بالقلم التدمري . وهناك نقوش وزخارف بارزة من اوراق وازهار واثمار وتماثيل وهي من رخام ابيض وما بينها مدهون بلون ازرق يزيدها بهجة . واشهر المدافن القائمة ثلاثة يسميها العرب الساكنون تدمر الآن قصر الزينة وقصر العزبة وقصر العروس . وقد وجد القبطان برتن مدافن كثيرة مطمورة بالتراب وهي على نسق المدافن المتقدم ذكرها ووجد فيها اجساداً محنطة ونسجاً مختلفة الاصباغ وتحفاً كثيرة وشعوراً محناة وقوائم ونقوداً وغير ذلك مما يدل على قِدم تدمر وتقدمها في المدنية

وجاء في معجم البلدان لياقوت « هي (تدمر) من عجائب الابنية موضوعة على العمد الرخام زعم قوم انها مما بنته الجن لسليمان عليه السلام ولم الشاهد على ذلك قول النابغة الذبياني

ألا سليمانُ اذ قال الاله لهُ قُمْ في البرية فاحددْها عن الفندِ
وخيّس الجنَّ انّي قد امرتهمُ يبنون تدمُرَ بالصُفّاحِ والعمدِ »

ثم ذكر اسماء الشعراء الذين ذكروها في شعرهم او وصفوها منهم اوس بن حلبة صاحب قصر اوس بالبصرة ومحمد ابن الحاجب وابو الحسن العجلي . وقد ذكرها ابو الطيب المتنبي ايضاً سنة ٣٤٤ هجرية

حقائق عن تدمر من آثارها

كتب الينا المرحوم ادمون دوريغللو قبل وفاته ما خلاصتهُ :

لخامة المباني تثبت ان تدمر بلغت درجة رفيعة في الارتقاء المالي ولم تبلغ ما يضاهيهِ في الفنون لان الذوق قليل جدًّا في العمار . وذلك تثبتهُ كثرة الحلى على صدور النساء وفي بعض الاحيان على صدور الرجال كما يظهر من الصورة (١) والذوق يكاد يكون معدوماً في كل ما كشفتهُ من التماثيل وما كشفهُ السكان ايضاً

وكانت النساء تلتحف ما يشبهُ ملاية ويكشفن وجوههن كما ترى في الصورة

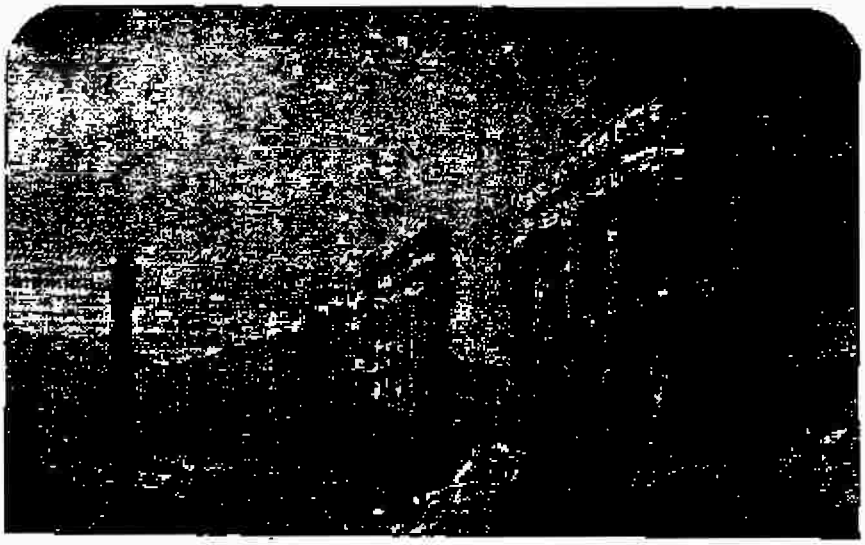

شكل (٥)

(٢) وقليلات منهنَّ كنَّ سافرات الوجه مكشوفات الرأس كما ترى في الصورة (٣) وعلى رؤوس الرجال نوع من القلانس تشبه القلنسوة الفارسي واكثرها عليها اكاليل وعندي ان الاكاليل خاصة بالموتى كرمز ديني كما ترى في الصورة (٤)

وقد نقش على هذه التماثيل كتابات ملخصها طلب الرحمة من الله للموتى فكأن السكان كانوا مؤمنين بالله

والمرحوم المسيو دوريغللو يرى انهُ اذا حُفر بين الاعمدة في الساحة السومية بتدمر ظهرت آثار مهمة وانهُ لا بد ان يكون في باطن البلدة آثار فينيقية وعبرانية